

عمران دمشق

تاريخها العصري

ضاعت سيرة احمد باشا الجزائر البشتاني الذي نفذ حكمه في سوريا ٢٨ عاماً واخذ دمشق اربع مرات اولها سنة ١١٩٨ كما ضاع كثير من الانبياء الاخيرة . وبما يؤرخ من حوادث القرن الثالث عشر حادثة الصدر الاعظم سليم محمد باشا سنة ١٢٤٦ وقد جاء دمشق والياً بعد ان اباد جيش الانكشارية في الاستانة فهم ان يفتال بعض اعيان المدينة وعلمائها لانهم حالوا دون تنفيذ ما رآه من ضرب خراج على عقارات دمشق بجمعهم بمجدد في القلعة ولما احسوا بمكيدته نار العامة باشاء تبهم فصرهم من ابراج القلعة بالقنابل ولما ضاق عليه خناق الحصار جاء في بعض رجاله الى دار في باب البريد فتأثره العامة وقتلوه وحلقتهم حرقاً

وبعد نصفي اشهر جاء دمشق ابراهيم باشا بن محمد علي باشا عزيز مصر للانتقام من عبد الله باشا والي عكا فجعل دمشق عاصمة سورية ومنع الرشي والحجابه وبث قواعده المساواة وابطل المصادرات وقرّر حق التملك وبسط ظل الامن . وزاد صاحب الروضة الفناء في تخطيط الزراعة والتجارة والصناعة وامر بتعمير تربية دود الحرير ودودة القرمز . واكد في كثير من ان يعمل هذا استعادت اكثر قرى حوران وعجلون وحماة وحمص وغيرها من اصقاع الشام عمرانها الذي كانت فقدته منذ عشرات من السنين . وقرب العلماء والشعراء ورخص للاجانب في ارسال معتمديهم الى النجاش وكانوا يمنعون من دخولها قبله

غير ان حكمه كان مشهوراً شأن كل داخل بالسفك والبطش ومع انصافه الى وجهته الى التهيد مدة مقامه وهو تسع سنين شيد في بر الشام مباني عظيمة خصوصاً في دمشق تصعب محاسنها كالاستشفى العسكري وتكن الجنود ومستودع البارود وغيرها من المحال

ومن رسوم الفتح ان يحطب باسم الفاتح لكن البعض قد لا يهتمون بذلك كما فعل ابراهيم باشا فانه ابقى الخطبة باسم السلطان وعملت انكثرا على جلائه طوعاً او كرهاً كما فعلت مع نابوليون بونابرت ايام احتلاله مصر وبعض سواحل الشام في القرن الماضي ومن الحوادث الخطيرة حادثة جرت منذ اربعين سنة وثبت بين المسلمين والمسيحيين اختلفت الآراء في اسبابها ويؤكد بعضهم انها امرٌ دبر لبليل عمداً . وكانت جذوة الفتنة تظرم اولاً في لبنان ووادي التيم وجرت حروب اهلية بين المسيحيين والدروز وفك هولاك

بمواطنيهم فتكاد ذريعاتها في حاصبيا وراشيا وزحلة ودير القمر ثم سرت شرارتها الى دمشق فقام ارباب الدعارة من المسلمين وجاء الدرود ايضا يقتلون وينهبون ويحرقون ويحرقون . قال صاحب قطف الزهور فارسلت فرنسا باختيار الدولة العلية ورشاها عشرة آلاف جندي للمحافظة ومنع التعدي عند الافتضاء وكذلك باقي الدول الفرنجية منها من ارسل مراكب حربية ومنها من ارسل نوأبا لاصلاح الحال

وخيم جند الفرنسيين في البقاع تسعة اشهر والسفن الاجنبية ظلت راسية مدة في ميناء بيروت حتى أعاد فراد باشا الامن الى حاله وارجع الحكم الى نصابه فنفى بعض الاعيان لعدم ممانعتهم الاشقياء والاسافل من وقوع هذا الاخلال وقتل بعضهم رشقا بالزصاص منهم والي الشام احمد باشا وبعض رؤساء الجند وصلب كثيرا ممن ثبت عليهم الاشتراك في هذا الاثم الكبير

وعوض على المتكويين من مال الدولة والاهلين ولكن لا بالانصاف فاغثنى بعضهم وكان فقيرا وانتقر بعضهم وكان غنيا واصبح الناس شرعا في الشؤون الاجتماعية الى غير ذلك من المنافع التي تحفّضت عنها تلك المضار . ولولا ما ابداه الامير الخطير السيد عبد القادر الحسيني الجزائري الشهير وبعض من حدا حدوه من عقلاء الدماشقة في حماية المسيحيين لازداد الشر قافا والعقدة ارباكاً

ومن احسن الخدمة من الولاة المتأخرين في دمشق ضيا باشا الذي ولي الشام اشهرآ في خلال سنة ١٢٩٣ وقد اشتهر بحفظه للآثار والعاديات وبث روح الصدق والاخلاص في قلوب الاهلين وشفقته عليهم شفقة مجردة عن الغرض . ومدحت باشا ذاك الرجل الذي يرد تاريخ العمران في سورية الى عهدو فانه اسس مدارس ابتدائية واعدادية ومدرسة للصنائع ووسع بعض الطرق وفتح الاسواق واقام الحدائق لنزهة الاهلين وكفاه طريق الشوسه بين مدينتي طرابلس وحمص الذي اسس بمال الوطنيين وأدير بأيديهم . وانه للوزير المتفضل على كل من أنقذ من ظلمة الأمية من الشبان وجاء ايضا مصطفى عاصم باشا المشهور باستقامته وغيرته على الامة والدولة فقام ببعض الآثار الا ان النية عاجلته بعد ان حكم قرابة سنتين . وكذلك الوالي الحالي حسين ناظم باشا صرف وكده لتشييد البيارستان ودار المعتمهين في غربي البلد فنجزا في العام الماضي على اجل وجه ثم بدى بانشاء دار للحكومة لائقة لان الموظفين كانوا حتى اليوم يقيمون في دار هي للسكنى اليق منها بدار حكومة وكادت تنتهي التكلفة التي بدى بانشاءها في غربي المدينة منذ مدة وقد كلفت ٦٣

الف ليرة عثمانية عدا جماعات الجند النظامي الذي سخر للعمل بها والاحجار الضخمة التي نُسلت من ابراج القلعة القديمة ونُقلت لشمرها

وفي ١٧ تموز (يوليو) سنة ١٨٩٤ نجز ثاني خط حديدي في سورية وهو خط دمشق وحمص طولُه مائة كيلومتر وفي شهر آب (اغسطس) سنة ١٨٩٥ احتفل بافتتاح خط آخر بين بيروت ودمشق طولُه ١٤٧ من الكيلومترات فأوصل بالأول . وقد كان يخي من هذا المشروع ما يُرجى عادة من قطار الجزار اذا انتهب السباب والفقار . فتكثر المواصلات والاختلاط وتزيد حركة التجارة والزراعة ويتوفر الصادر والوارد الا ان الامر جاء على عكس المبتغى واي سوء نتيجة هذا القطر والشقاء اليفه في كل ادوارهم ان يؤتمن هذا القصر ايضا ولو بخط حديدي مد يد اجنبية فلم تراعى الشركة مصالح الركاب والتجار خلافاً للخط الذي سبى عليها سائر الشركات التجارية في البلاد المتقدمة من مراعاة شعائر كل قبيل والقيام على ما يوفر الراحة والنظر في ما يخفف الاجور . فنفر القوم منها والنفوس من عادتها ان تنفر ممن يستخف بها ولا يحفل بشأنها

استعملت مركبات للركاب لا تليق الا بالبهائم ولم تبين محطات مناسبة وانظر للانظار وحدث ما شئت ان تحدث عن محطة البرامكة في ظاهر المدينة وكان الشركة استعملتها فجعلت اقرب محطة منها من احقر محطات العالم . خل عنك معاملة موظفيها للاهلين معاملة يشتمز منها اخس حيوان ناطق

اما من حيث الاقتصاد فقد كان البريد بين دمشق وبيروت اسرع تبادلاً ايام كانت شركة طريق الحوافل بين المدينتين فقد كانت الرسالة تصل في يومين من بيروت الى دمشق وبالعكس اما الآن فيستغرق وصولها اربعة ايام . فضلاً عن ان الطريق بين المدينتين يسد بالتلوج كل عام مرة او مرتين تدوم المرة زهاء اسبوعين او ثلاثة وتقطع المواصلات بته مما لم يحدث من قبل

وكانت الشركة في اول نشأتها سرت قطاراً ليلاً بين بيروت ودمشق ليقل ركاباً وبضائع ويأخذ البريد فالغنة بعد سنة ثم استرضيت فبعت ثلاث ليال في الاسبوع ثم حنقت من الحكومة المحلية البعض ثمنها فابطلت القطر الليلي جملة واكتفت بتسيير ثلاث قطارات في النهار احدها للركاب والاثنان للبضائع تسير في هنية مقاربة تقطع المسافة بين دمشق وبيروت في تسع ساعات على حين ان الحافلة كانت تقطعها في ١٢ ساعة بخيلها وبغالها . واكتفت بتسيير قطار دمشق وحمص ثلاث مرات في الاسبوع على قرب المسافة ومهولة الطريق بخلاف

سكة بيروت فانها في اودية وشعاب وعقاب تشبه الاراقم في انسيابها وتلويها وزد على ذلك أن هذه السكة لا تُعدّ من ذات السير السريع بل هي ترامواي بخاري وسيورها بطيئ ليس إلا وكانت شركة العربات والحوافل بين دمشق وبيروت تستخدم كثيراً من ابناء البلاد ونوّدي الهمم روائب متناسبة مع اقتدارهم وحسن بلائهم اما الآن فقد اكتفت شركة السكة الحديدية ببعض فتيان من الوطنيين تتقدم من الدرهم ما يقيم الجرع فقط واختصت رجالها بالخدمات الراجحة كان عند الشركة الخالية الف بقل وحصان فلوفرض انها كانت تُطمم الدابة في اليوم نصف مده من الشعير يساوي من ثلاثة الى اربعة قروش واحياناً أكثر من ذلك عدا العلف والتبن والكلأ فكم كانت تستنفد في السنة من هذه الاصناف . وكفي برهاناً على خسارة البلاد من هذا الوجه ان كورة البقاع كاذ يسرع اليها الخواب لما سقطت شركة الحوافل لان منها كانت تباع محصولاتها . وقد بلغت واردات الشركة لعام ١٨٩٩ — ٩٠٤٩٢٧٤ قرشاً اميرياً وعدد الركاب بين دمشق وبيروت وحموران ١٥٩٣٧٢ نفساً بزيادة ٨٢٦٥ عن السنة التي قبلها والمتقولات ٩٠ الف طن بزيادة ١٣ الفاً عن العام المنصرم . ولعلّ الشركة الجديدة التي اخذت على عهدها ادارة هذه السكة في العام الماضي تسمى في تحسين حالتها قترفع شكواها من الخسارة وشكوى الناس من سوء الادارة

ومنذ امد غير بعيد اشتدّ اللفظ بشأن انشاء سكة حديدية جديدة الاولى من حينها فدمشق قبعداد تخليج فارس والثانية من دمشق لخماة حلب . والثالثة من دمشق الى مكة . الاّ ان هذه الاعمال على النعالي بامرها فافتتت كلاماً في كلام . ومن عادة الشرقيين ان يتظاهروا بالقول ويطنطنوا به حتى اذا حقت كلمة الفعل لبدت عجاجتهم وغاضت مجاجتهم ولكن المستقبل كشاف الخفايا يدلّ على الاقتدار الحقيقي كما يدلّ على العجز المموءة

يتبادل البريد الآن بين دمشق والبلاد الشرقية والشمالية وعمالات الولاية مرة في الاسبوع غالباً مع السعاة . والانتظام معدوم في ادارة البريد والبرق هنا وكمن تجارير فقدت او فتحت ومن رسائل برقية تأخرت وعطلت ومن جرائد ومجلات أحرقت او سرت

للجالس البلدية في البلاد المتخذة شأن واي شأن فاذا قلت البلدية فكأنك تعني ادارة يدها حضارة مدينة وغضارتها مما هو على طرفي نقيض عندنا فقد أنشئت بلدية دمشق منذ نحو ثلاثين سنة فكانت ولا تزال ما كلة تُسدّ باموالها النهمة تؤخذ من الصعاليك مكماً واختلاساً بالدانق وتُعطي لمن لا خلاق له بالدنانير . ومنذ عشرين سنة اخذت الدولة للخرانة نصف واردات البلدية ثم احدثت ضريبة نقاضي من اللحم . وتراوح واردات البلدية

مسافة بين ١٢ و ١٣ الف ليرة عثمانية هذا اذا تركت لها ٤٥٠٠ ليرة التي كانت لها ادارة
الجامع الأموي

ولئن عُنيت البلدية برصف بعض طرق البلدة وتوسيع بعض شوارعها إلا أن ما صرفته
لا يوازي ما لتقاضاهُ الاهلين . وهي الآن مضطرة الى اداء رواتب للضابطة والشرطة
ومشاهرات لبعض المنقبين وغاضة الطرف طوعاً او كرهاً عن القيام بما يجب عليهم من الكف
والرش ورفع القاذورات واصلاح الطرق وانارة الاحياء والشوارع الى آخر وظائفها فأصبح مجلسنا
البلدي كما قيل لاهوميت فينسى ولا حي فيرجى بذكر بديوان الحسبة الذي كان يقوم قديماً
بهذه الاعباء فينتق الاثنى بالتبرحم على أيامه

ولعمري لو سلمت وردات البلدية الى رجل امين عارف باصول الادارة وتربى في كنفها
لتنفيذ قانون البلدية قولاً وفعلاً مكفوفة عنه ايدي الميطرين مع رخص مواد البناء واجور
العملة وكثرة المياه لاصححت دمشق في بضع سنين زهرة البلاد العثمانية ودنياً صاهت المدن
الاورية بانتظامها وحسن هئامها

غوطتها

قل من يدخل دمشق أو يقرأ عنها شيئاً في الاسفار الا تطرق اذنه كلمة "الغوطه" وهي
الكورة التي عدت من مفاخر هذه الحاضرة قديماً وحديثاً لخصب ارضها وكثرة مياهها ووفرة
متزاهتها وضياعها . يروى ان المأمون اقسم وقد نظر يوماً الى اشجارها وبنائها انها خير معنى على
وجه الارض وقال عجبت لمن سكن غيرها كيف ينعم مع هذا المنظر الانيق الذي لم يخلق مثله
قال ياقوت والغوطه من النابض وهو المطمئن من الارض وجمعه غيطان والخطوب وقال
ابن الاعرابي الغوطه مجتمع النبات وقال ابن شميل الغوطه الوهدة في الارض الخصب والغبطة والغوطه
هي الكورة التي منها دمشق امتداداتها ثمانية عشر ميلاً يحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها
ولا سيما من شماليها فان جبالها عالية جداً ومياهها خارجة من تلك الجبال وتعد في الغوطه في
عدة انهر فتسقي بساتيتها وازروعها ويصب باقيها في اجمة هناك وبحيرة . والغوطه كلها اشجار
وانهار متصلة قل ان يكون بها مزارع للمستغلات الا في مواضع بسيرة وهي بالاجماع انزه بلاد
الله واحسنها منظرًا وهي خطري جنان الارض الاربع صعد سمرقند ونهر الإبلق وشعب بوان
والغوطه اجلها . ويصعب تحديدها بالتدقيق والغالب ان كل ما يحيط بالتيحاء من قرى
شجيرة يدخل تحت هذا الاسم . وذكر صاحب نزهة المشتاق ان طولها مرحلتان في عرض مرحلة
وبها ضياع كالمذنب مثل المزة وداريا وحرسه وكوكبا وبلاس وكفر سوسة وبيت الاهو

وبها جامع قريب الشبه بجامع دمشق . ومن بابها الغربي وادي البنفسج وطوله اثنا عشر ميلاً وعرضه ثلاثة أميال وكله مزروس باجناس الثمار يشتم خمسة اناهار - كذا قال ولا يعرف اليوم البنفسج ولا واديه

وقال الاصطخري ان عرض الغوطة مرحلة في مرحلتين وروى المقدسي انها تكون مرحلة في مثلها يعجز عن وصفها . وفي رأي شيخ الرّبوة ان الغوطة هي من حيز دمشق ناحية يكون طولها ثلاثين ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً مشتبكة القرى والضياع لا تكاد الشمس تقع على ارضها لاختمفاق اشجارها والنفان ازهارها . ولعل ما ورد في شعرو جيو الدولة بن حمدان من ذكر الغوطة بلفظ الثنية يراد به غوطة شرقية وغوطة غربية وهو قوله

سقى الله ارض الغوطين واهلها فلي يجنوب الغوطين شجون
فما ذكرتها النفس الا استغفني الى برد ماء التيرين حنين
وقد كان شككي للفراق يروعني فكيف يكون اليوم وهو يقين

هذا مختلف اقوال قدماء الجغرافيين في تحديد الغوطة ولم اعثر على كلام للمحدثين

في هذا الباب

جبالها

قال احد السياح احسن مناظر سورية ثلاثة جبال جبل الصبر في نابلس وجبل الكرمل في حيفا وجبل الشيخ المعروف في الكتب القديمة بجبل حرمون ولو انصف لهداً ايضاً جبل قاسيون المطل على دمشق وغرطنها الفناء . ولقد كان له في القديم شأن ما يرح يتردد ذكره على المدى وفيه من القصور والبروح وفي سفحه من المنزهات والجنان ما يكمل عن وصفه اللسان . وللعمامة قصص على مشاهد الجبل لا تزال دائرة على الافواه وما هي في الحقيقة الا من قبيل الامور الروحانية واكثرها ان لم اقل كلها لا يثبت تاريخياً

ويتسلسل من جبل قاسيون جبل كان يدعى جبل سنير واليوم يقال له جبل قلوب او الحلو . ويؤخذ من عبارة ابي الفداء ان جبل الثلج وجبل لبنان وجبل اللكام سلسلة متصلة بعضها ببعض حتى صارت جبلاً تمتد من الجنوب الى الشمال فالطرف الجنوبي لهذا الجبل بالقرب من صند قال في رسم الارض طرف جبل الثلج يمتد الى الشمال ويتجاوز دمشق ويسمى اذا صار في شمالها جبل سنير وجانبه المطل على دمشق قاسيون ويتجاوز دمشق ويمر غربي بعلبك ويسمى الجبل المقابل لبعليك جبل لبنان واذا تجاوز بعلبك وصار شرقي طرابلس الشام يسمى جبل عكار ثم يمر شمالاً ويتجاوز سمط طرابلس الى حصن الاكراد ويسمى حصن من

غريبها على مسيرة يوم ويمتد ويتجاوز سمت حماة ثم سمت شيزر ثم سمت انمايه وتسمى حين
ما يكون قبالة هذه البلاد جبل اللكام قال البحري

وتعمدت ان تظل ركابي بين لبنان ظلماً والسنير
مشرفات على دمشق وقد اعرض منها بياض تلك القصور

وعلى ثلاث ساعات من جنوبي دمشق سلسلة جبال لتصل ببجبال الشيخ وعجلون وهوران
تدعي غالباً باسماء قرأها القريبة منها كان يقولوا جبل الكسوة وجبل المرحلة وغيرها
وسأقي الكلام على متزهات دمشق في الجزء التالي محمد كرد علي

اغنياء اميركا

(١١) اندرو كارنجي

وهو اشهر اغنياء اميركا بلا استثناء لما اتاه وياتيه من الاعمال الخيرية وقد سأل على نفسه
ان ينفع العالم بالمال قبل وفاته غرضاً عن ان يتركه لابنته وهي وحيدة . ولا حاجة بنا الى
ذكر تاريخ حياته فقد ذكره المقتطف في عدد سابق ويكاد القارئ لا يفتح جريدة يومية
او شهرية الا يرى له ذكراً فيها خصوصاً بعد ما وهب مليوني جنيهه لمدارس اسكوتلاندا
مسقط رأسه . وقد قال مرة ان من يموت غنياً يموت حقيراً وبذلك اوضح المسؤولية الادبية
العظيمة التي على اصحاب الثروة . ويعلم جمهور القراء ان كارنجي ولد فقيراً وكان في بدء
امره ساعياً في بيت التلفراف ثم تعلم العمل به وما زال يجتهد ويرتقي من عمل الى آخر حتى صار
ملك الصلب (الفولاذ) في اميركا . يروى عنه انه قليل الكلام كثير الافتكار حتى قالت
عنه احدي السيدات لو اوقفت تحت القبة الزرقاء والسماء صافية الاديم وسألته عن لونها
لا تترك هنيئة قبل ان يدي جواباً

ولكارنجي ولع شديد بثلاثة اشياء كان يعال النفس بها وهو فقير وعقد النبي على انماها
عند ما يصير غنياً . اولها الشهادة المكتوبة العمومية وذلك لانه اعناد وهو فقير من يشعير كتباً
من احد المحسنين وكان قد وقف مكتبته للعمال فكان يدر بقرائتها وينتظر يوم السبت بفروخ
صبر حتى يتبدل كتاباً قرأه باخر . وبلغ عدد المكاتب التي انشأها نحواً من تسعين مكتبة
في مدن متفرقة في اسكوتلاندا واميركا وبلغ ما انفق على بعضها نحو مئتي الف جنيه عدا